الفصل الثالث

التعريف بالقضاء والقدر

المبحث الأول

التعريف بالقدر

«القدر مصدر، تقول: قَدَرت الشيء بتخفيف الدال وفتحها أَقْدِره بالكسر والفتح قَدْراً وقَدَراً، إذا أحطت بمقداره»(١).

والقدر في اللغة «القضاء والحكم ومبلغ الشيء، والتقدير التروية والتفكر في تسوية الأمر»(٢).

والقدر في الاصطلاح: «ما سبق به العلم، وجرى به القلم مما هو كائن إلى الأبد، وأنه ـ عزّ وجلّ ـ قدّر مقادير الخلائق، وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل، وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده تعالى، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها»(٣).

وقال ابن حجر في تعريفه: «المراد أنَّ الله ـ تعالى ـ علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها، ثمَّ أوجد ما سبق في علمه أنه يوجد، فكل محدث صادر عن علمه وقدرته وإرادته»(٤).

(١) فتح الباري لابن حجر العسقلاني: ١/١١٨.
(٢) القاموس المحيط للفيروزآبادي: ص ٥٩١.
(٣) عقيدة السفاريني: ١/٣٤٨.
(٤) فتح الباري: ١/١١٨.

ونقل السفاريني عن الأشعرية أن «القدر إيجاد الله ـ تعالى ـ الأشياء على قدر مخصوص، وتقدير معين في ذواتها وأحوالها طبق ما سبق به العلم وجرى به القلم»(٥).

وهذه التعريفات متقاربة فيما بينها، وهي تفيد أن القدر يشمل أمرين:

الأول: علم الله الأزلي الذي حكم فيه بوجود ما شاء أن يوجده، وحدد صفات المخلوقات التي يريد إيجادها، وقد كتب كل ذلك في اللوح المحفوظ بكلماته، فالأرض والسماء أحجامهما وأبعادهما وطريقة تكوينهما وما بينهما وما فيهما كل ذلك مدون علمه في اللوح المحفوظ تدوينا دقيقا وافيا.

والثاني: إيجاد ما قدر الله إيجاده على النحو الذي سبق علمه وجرى به قلمه، فيأتي الواقع المشهود مطابقا للعلم السابق المكتوب.

والقدر يطلق ويراد به التقدير السابق لما في علم الله، ويطلق ويراد ما خلقه وأوجده على النحو الذي علمه.

وسئل الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ عن القدر فأجاب شعرا قائلا:

فما شئتَ كان وإن لم أشأ ... وما شئتُ إن لم تشأ لم يكنْ
خلقتَ العباد على ما علمتَ ... ففي العلم يجري الفتى والمُسِنْ
على ذا مننتَ وهذا خذلتَ ... وهذا أعنتَ وهذا لم تُعِنْ
فمنهم شقي ومنهم سعيد ... ومنهم قبيح ومنهم حسنْ(٦)

---

(٥) عقيدة السفاريني: ١/٣٤٥.

(٦) الاعتقاد للبيهقي: ص ١٦٢. شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي: ١/٧٠٢.

المبحث الثاني

التعريف بالقضاء

«القضاء: الفصل والحكم. وقد تكرر في أحاديث الرسول ﷺ ذكر (القضاء) وأصله القطع والفصل. يُقَال: قضى يقضي قضاء فهو قاضٍ، إذا حكم وفصل. وقضاء الشيء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه، فيكون بمعنى الخلق.

وقال الزهري: القضاء في اللغة على وجوه، مرجعها إلى انقضاء الشيء وتمامه، وكل ما أُحْكِمَ عمله، أو أُتمَّ، أو أُدِّي، أو أُوجب، أو عُلِم، أو نُفِّذ، أو أُمْضيَ، فقد قُضي، وقد جاءت هذه الوجوه كلها في الأحاديث[7].

وللعلماء في التفرقة بين القضاء والقدر قولان:

الأول: القضاء هو العلم السابق الذي حكم الله به في الأزل، والقدر وقوع الخلق على وزن الأمر المقضي السابق. يقول ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى: «قال العلماء القضاء هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل، والقدر جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله»[8]. وقال في موضع آخر: «القضاء الحكم بالكليات على سبيل الإجمال في الأزل، والقدر الحكم بوقوع الجزئيات التي لتلك الكليات على سبيل التفصيل»[9].

الثاني: عكس القول السابق، فالقدر هو الحكم السابق، والقضاء هو الخلق.

---

(٧) النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: ٤/٧٨.

(٨) فتح الباري: ١١/٤٧٧.

(٩) فتح الباري: ١١/١٤٩.

قال ابن بطال: «القضاء هو المقضي»[10] ومراده بالمقضي المخلوق، وهذا هو قول الخطابي فقد قال في معالم السنن: «القدر اسم لما صار مُقَدَّرًا عن فعل القادر، كالهدم والنشر والقبض: أسماء لما صدر من فعل الهادم والناشر والقابض.

والقضاء في هذا معناه الخلق، كقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾[11] أي خلقهن»[12]

وبناء على هذا القول يكون «القضاء من الله تعالى أخص من القدر، لأنّه الفصل بين التقديرين، فالقدر هو التقدير، والقضاء هو الفصل والقطع»[13].

ويدل لصحة هذا القول نصوص كثيرة من كتاب الله، قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾[14]، وقال: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[15]. وقال: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[16].

فالقضاء والقدر ـ بناء على هذا القول ـ أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه»[17].

---

(10) فتح الباري: 11/149.
(11) سورة فصلت: 12.
(12) معالم السنن للخطابي: 7/70.
(13) المفردات للراغب الأصفهاني: ص 406.
(14) سورة مريم: 21.
(15) سورة مريم: 71.
(16) سورة البقرة: 117.
(17) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: 4/78. وانظر جامع الأصول: 10/104.

المبحث الثالث

أركان الإيمان بالقدر

الإيمان بالقدر يقوم على أربعة أركان، من أقرَّ بها جميعا فإن إيمانه بالقدر يكون مكتملا، ومن انتقص واحدا منها أو أكثر فقد اختل إيمانه بالقدر، وهذه الأركان الأربعة هي:

الأول: الإيمان بعلم الله الشامل المحيط.

الثاني: الإيمان بكتابة الله في اللوح المحفوظ لكل ما هو كائن إلى يوم القيامة.

الثالث: الإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته التامة، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

الرابع: خلقه تبارك وتعالى لكل موجود، لا شريك لله في خلقه.

وسنتناول هذه الأصول الأربعة بشيء من التفصيل.

الركن الأول
الإيمان بعلم الله الشامل

وقد كثر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تقرير هذا الأصل العظيم، فعلم الله محيط بكل شيء، يعلم ما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، ويعلم الموجود والمعدوم، والممكن والمستحيل.

وهو عالم بالعباد وآجالهم وأرزاقهم وأحوالهم وحركاتهم وسكناتهم وشقاوتهم وسعادتهم، ومن منهم من أهل الجنة، ومن منهم من أهل النار من قبل أن يخلقهم، ويخلق السموات والأرض.

وكل ذلك مقتضى اتصافه ـ تبارك وتعالى ـ بالعلم، ومقتضى كونه ـ تبارك وتعالى ـ هو العليم الخبير السميع البصير.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾(١٨). وقال: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾(١٩). وقال: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ﴾(٢٠). وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾(٢١).

وقال الحق مقررا علمه بما لم يكن لو كان كيف سيكون ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾(٢٢)، فالله يعلم أن هؤلاء المكذبين الذين يتمنون في يوم القيامة الرجعة إلى الدنيا أنهم لو عادوا إليها لرجعوا إلى تكذيبهم وضلالهم.

وقال في الكفار الذين لا يطيقون سماع الهدى ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾(٢٣).

---

(١٨) سورة الحشر: ٢٢.
(١٩) سورة الطلاق: ١٢.
(٢٠) سورة سبأ: ٣.
(٢١) سورة النجم: ٣٢.
(٢٢) سورة الأنعام: ٢٨.
(٢٣) سورة الأنفال: ٢٣.

ومن علمه تبارك وتعالى بما هو كائن علمه بما كان الأطفال الذين توفوا صغارا عاملين لو أنهم كبروا قبل مماتهم.

روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: «سئل النبي ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين»[٢٤].

وروى مسلم عن عائشة أم المؤمنين قالت: توفي صبي، فقلت: طوبى له، عصفور من عصافير الجنة.

فقال رسول اللهﷺ: «أولا تدرين أن الله خلق الجنة والنار، فخلق لهذه أهلا ولهذه أهلا»

وفي رواية عند مسلم أيضا عن عائشة قالت: «دُعِيَ رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنّة، لم يعمل السوء ولم يدركه.

قال: أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق للجنّة أهلا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم»[٢٥].

وهذه الأحاديث تتحدث عن علم الله في من مات صغيرا، لا أن هؤلاء يدخلهم الله النار بعلمه فيهم من غير أن يعملوا.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في قوله ﷺ في أبناء المشركين: «الله أعلم بما كانوا عاملين» «أي يعلم من يؤمن منهم ومن يكفر لو بلغوا، ثم إنه جاء في حديثٍ إسناده مقارب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة فإن الله يمتحنهم، ويبعث إليهم رسولا في

---

(٢٤) انظر فتح الباري: ٤٩٣/١١ ورواه مسلم بلفظه عن أبي هريرة: ٢٠٤٩/٤ ورقمه: ٢٦٥٩.
(٢٥) صحيح مسلم: ٢٠٥٠/٤ ورقمه: ٢٦٦٢.

عرصة القيامة، فمن أجابه أدخله الجنة، ومن عصاه أدخله النار» فهنالك يظهر فيهم ما علمه الله سبحانه، ويجزيهم على ما ظهر من العلم، وهو إيمانهم وكفرهم، لا على مجرد العلم»(٢٦).

الأدلة العقلية على أن الله علم مقادير الخلائق قبل خلقهم:

والحق أن وجود هذا الكون، ووجود كل مخلوق فيه يدلُّ دلالة واضحة على أن الله علم به قبل خلقه، «فإنه يستحيل إيجاده الأشياء مع الجهل، لأن إيجاده الأشياء بإرادته، والإرادة تستلزم تصور المراد، وتصور المراد هو العلم بالمراد، فكان الايجاد مستلزما للإرادة، والإرادة مستلزمة للعلم، فالإيجاد مستلزم للعلم»(٢٧).

وأيضا فإن «المخلوقات فيها من الإحكام والاتقان ما يستلزم علم الفاعل لها، لأن الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير علم»(٢٨).

واستدل العلماء على علمه تبارك وتعالى بقياس الأولى: «فالمخلوقات فيها ما هو عالم، والعلم صفة كمال، ويمتنع أن لا يكون الخالق عالما». والاستدلال بهذا الدليل له صيغتان:

«**أحدهما**: أن يقال: نحن نعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوق، وأن الواجب أكمل من الممكن، ونعلم ضرورة أنا لو فرضنا شيئين:

أحدهما عالم والآخر غير عالم، كان العالم أكمل، فلو لم يكن الخالق عالما لزم أن يكون الممكن أكمل منه، وهو ممتنع.

---

(٢٦) مجموع فتاوي شيخ الإسلام: ٢٤٦/٤.
(٢٧) شرح الطحاوية: ص ١٤٨.
(٢٨) شرح الطحاوية: ص ١٤٨.

الثاني: كل علم في المخلوقات فهو من الله تبارك وتعالى، ومن الممتنع أن يكون فاعل الكمال ومبدعه عاريا منه، بل هو أحق به، ذلك أن كل ما ثبت للمخلوق من كمال فالخالق أحق به، وكُل نقص تنزه عنه مخلوق ما فتنزه الخالق عنه أولى»[29].

وكل هذه الأدلة يمكنك أن تلمحها في قوله تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[30].

ويستدل على علمه ـ تبارك وتعالى ـ بإخباره بالأشياء والأحداث قبل وقوعها وحدوثها، فقد أخبر الحق في كتبه السابقة عن بعثه رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وصفاته وأخلاقه وعلاماته، كما أخبر عن الكثير من صفات أمته، وأخبر في محكم كتابه أن الروم سينتصرون في بضع سنين على الفرس المجوس، ووقع الأمر كما أخبر، والإخبار عن المغيبات المستقبلة كثير في الكتاب والسنة.

الركن الثاني
الإيمان بأن الله كتب في اللوح المحفوظ كل شيء

دلت النصوص من الكتاب والسنة على أن الله كتب في اللوح المحفوظ كل شيء، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء»[31]

---

(٢٩) شرح الطحاوية: ص ١٤٨.
(٣٠) سورة الملك: ١٤.
(٣١) رواه مسلم في صحيحه: ٢٠٤٤/٤. ورقم الحديث: ٢٦٥٣.

ورواه الترمذي بلفظ: «قَدَّر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»[٣٢].

وفي سنن الترمذي أيضا عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب القدر ما كان، وماهو كائن إلى الأبد».

قال أبو عيسى الترمذي: وهذا حديث غريب من هذا الوجه[٣٣].

واللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الخلائق سماه القرآن بالكتاب، وبالكتاب المبين، وبالإمام المبين وبأم الكتاب، والكتاب المسطور. قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾[٣٤] وقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾[٣٥] وقال: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[٣٦]. وقال: ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾[٣٧]. وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[٣٨].

---

(٣٢) سنن الترمذي (٤٥٨/٤) ورقمه ٢١٥٦. وقال فيه: حديث حسن صحيح.

(٣٣) سنن الترمذي: ٤٥٨/٤. ورقمه: ٢٠٥٥. والحديث صحيح. فالغرابة إنما هي في الوجه الذي أورده الترمذي في باب القدر، وإلا فإنه قد أورده في كتاب التفسير، وقال فيه: حديث حسن غريب. وقد أورده الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح سنن الترمذي: (٢٢٨/٢) وذكر أنه خرجه في سلسلة الأحاديث الصحيحة وغيرها.

(٣٤) سورة البروج: ٢١ ـ ٢٢.

(٣٥) سورة الحج: ٧٠.

(٣٦) سورة يس: ١٢.

(٣٧) سورة الطور: ١.

(٣٨) سورة الزخرف: ٤.

الركن الثالث
الإيمان بمشيئة الله الشاملة وقدرته النافذة

وهذا الأصل يقضي بالإيمان بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، فما شاء الله كان، ومالم يشأ لم يكن، وأنه لا حركة ولا سكون في السموات ولا في الأرض إلا بمشيئته، فلا يكون في ملكه إلا ما يريد.

والنصوص المصرحة بهذا الأصل المقررة له كثيرة وافرة، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾(٣٩)، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾(٤٠)، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾(٤١)، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(٤٢)، وقال: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٤٣).

ومشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة يجتمعان فيما كان وما سيكون، ويفترقان فيما لم يكن ولا هو كائن.

فما شاء الله تعالى كونه فهو كائن بقدرته لا محاله، ومالم يشأ الله تعالى إياه لا يكن لعدم مشيئة الله تعالى ليس لعدم قدرته عليه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾(٤٤)، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ

---

(٣٩) سورة التكوير: ٢٩.
(٤٠) سورة الأنعام: ١١١.
(٤١) سورة الأنعام: ١١١.
(٤٢) سورة يس: ٨٢.
(٤٣) سورة الأنعام: ٣٩.
(٤٤) سورة البقرة: ٢٥٣.

﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[٤٥]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[٤٦]، وقال ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾[٤٧]،وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[٤٨]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾[٤٩]، والآيات في هذا كثيرة تدل على عدم وجود ما لم يشأ وجوده لعدم مشيئته ذلك، لا لعدم قدرته عليه، فإنه على كل شيء قدير تبارك وتعالى.

الركن الرابع
الإيمان بأن الله خالق كلّ شيء

قررت النصوص أن الله خالق كل شيء، فهو الذي خلق الخلق وكوّنهم وأوجدهم، فهو الخالق وما سواه مربوب مخلوق ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[٥٠]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٥١]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[٥٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[٥٣]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[٥٤]، والنصوص في هذا كثيرة طيبة.

---

(٤٥) سورة المائدة: ٤٨.
(٤٦) سورة الأنعام: ٣٥.
(٤٧) سورة الأنعام: ١٠٧.
(٤٨) سورة يونس: ٩٩.
(٤٩) سورة الفرقان: ٤٥.
(٥٠) سورة الزمر: ٦٢.
(٥١) سور يس: ٨١.
(٥٢) سورة الأنعام: ١.
(٥٣) سورة النساء: ١.
(٥٤) سورة الأنبياء: ٣٣.

المبحث الرابع

أفعال العباد مخلوقة مقدرة

لا يَخرج العباد وأفعالهم عن غيرها من المخلوقات، فقد علم الله ما سيخلقه من عباده، وعلم ماهم فاعلون، وكتب كل ذلك في اللوح المحفوظ، وخلقهم الله كما شاء، ومضى قدر الله فيهم، فعملوا على النحو الذي شاءه فيهم، وهدى من كتب الله له السعادة، وأضل من كتب عليه الشقاوة، وعلم أهل الجنة ويسرهم لعمل أهلها، وعلم أهل النار ويسرهم لعمل أهلها.

والنصوص التي سقناها فيما سبق تكفي في الدلالة على هذا الذي قررناه هنا، ومع ذلك فهناك نصوص كثيرة أخرى أصرح في الدلالة في هذه المسألة.

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾(٥٥)، وقال: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾(٥٦)، وقال: ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾(٥٧). وقال: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾(٥٨)، وقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾(٥٩).

---

(٥٥) سورة الصافات: ٩٦.
(٥٦) سورة الصافات: ٥٢.
(٥٧) سورة فاطر: ١١.
(٥٨) سورة الأعراف: ١٧٨.
(٥٩) سورة النحل: ١٢٥.

وجاءت أحاديث كثيرة تواتر معناها على أن رب العباد علم ما العباد عاملون، وقدر ذلك وقضاه وفرغ منه، وعلم ما سيصير إليه العباد من السعادة والشقاء، وأخبرت مع ذلك كله أن القدر لا يمنع من العمل، «اعملوا فكل ميسر لما خلق له».

وسنورد هنا بعض النصوص الدالة على ذلك.

النصوص الدالة على تقدير الله أفعال العباد

١ ـ الأحاديث الدالة على أن أعمال العباد جفت بها الأقلام وجرت بها المقادير:

روى مسلم في صحيحه عن جابر قال: جاء سراقة بن مالك بن جُعْشم قال: يا رسول الله، بين لنا ديننا كأنَّا خلقنا الآن، فيما العمل اليوم؟ أفيما جَفَّت به الأقلام، وجرت به المقادير، أم فيما يستقبل؟ قال: «لا. بل فيما جَفَّت به الأقلام وجرت به المقادير».

قال: ففيم العمل؟

فقال: «اعملوا فكلٌّ ميسر» وفي رواية: «كل عامل ميسَّر لعمله»[٦٠].

وروى الترمذي في سننه أن عمر بن الخطاب قال للرسول ﷺ: «يا رسول الله أرأيت ما نعمل فيه، أمر مبتدع أو مبتدأ، أو فيما فرغ منه؟

فقال: فيما فرغ منه يا ابن الخطاب، وكلٌّ ميسَّر، أمّا من كان من أهل السعادة فإنَّه يعمل للسعادة، وأمّا من كان من أهل الشقاء فإنّه يعمل للشقاء».

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح[٦١].

---

(٦٠) صحيح مسلم: ٤/٢٠٤٠ ورقم الحديث: ٢٦٤٨.
(٦١) رواه الترمذي: ٤/٤٤٥. ورقم الحديث: ٢١٣٥.

٢ ـ علم الله بأهل الجنة وأهل النار:

وروى البخاري عن عمران بن حصين قال: قال رجل يا رسول الله، «أيُعْرف أهل الجنّة من أهل النار؟

فقال: نعم.

قال: فلم يعملون؟ قال: كلٌّ يعمل لما خلق له، أو ييسر له».

وروى مسلم في صحيحه عن عليّ قال: «كنا في جنازة في بقيع الغرقد[٦٢]. فأتانا رسول الله ﷺ، فقعد وقعدنا حوله، ومعه مِخْصَرَةٌ[٦٣]. فنكّس[٦٤]، فجعل ينكث بمخصرته[٦٥]، ثم قال: «ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة، إلا وقد كتب الله مكانها من الجنّة أو النار، وإلاّ قد كتبت شقيّة أو سعيدة».

قال: فقال رجل يا رسول الله، أفلا نمكث على كتابنا، وندع العمل؟ فقال: من كان من أهل السعادة، فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة». فقال[٦٦] «اعملوا فكل ميسر، أمّا أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأمّا أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة». ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾[٦٧]»[٦٨].

---

(٦٢) بقيع الغرقد: مقبرة أهل المدينة.
(٦٣) المخصرة: عصا صغيرة.
(٦٤) نكس رأسه: خفضه.
(٦٥) أي يخط بمخصرته في التراب.
(٦٦) هكذا في الحديث كرر «فقال».
(٦٧) سورة الليل: ٥ ـ ١٠.
(٦٨) رواه مسلم: ٤/٢٠٣٩. ورقم الحديث: ٢٦٤٧. والحديث رواه البخاري في غير موضع في صحيحه ورواه الترمذي وأبو داود. واللفظ الذي سقناه هنا لمسلم.

٣ ـ استخراج ذرية آدم من ظهره بعد خلقه وقسمهم إلى فريقين: أهل الجنة وأهل النار:

وأخبرنا رسولنا ﷺ أن الله مسح ظهر آدم بعد خلقه له، واستخرج ذريته من ظهره أمثال الذر، واستخرج منهم أهل الجنة وأهل النار.

روى مالك والترمذي وأبو داود عن مسلم بن يسار قال: سئل عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾(٦٩).

قال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها فقال: «إن الله خلق آدم، ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذريته، فقال: خلقت هؤلاء للجنّة، وبعمل أهل الجنّة يعملون، ثم مسح ظهره، فاستخرج منه ذرية، فقال خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون».

فقال رجل: ففيم العمل؟

فقال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنّة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنّة، فيدخل به الجنّة.

وإذا خلق العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخل به النار»(٧٠).

---

(٦٩) سورة الأعراف: ١٧٣.

(٧٠) مشكاة المصابيح: ٣٤/١ ورقم الحديث: ٩٥ وقال محقق المشكاة الشيخ ناصر الدين الألباني فيه: رجال إسناده ثقات رجال الشيخين، غير أنه منقطع بين مسلم بن يسار وعمر، لكن له شواهد كثيرة.

وروى الإمام أحمد في مسنده بإسناد صحيح إلى ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان ـ يعني عرفه ـ فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قبلا قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾(٧١)»(٧٢).

وروى أحمد في مسنده بإسناد صحيح عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «خلق الله آدم حين خلقه، فضرب كتفه اليمنى، فأخرج ذريته بيضاء كأنهم الذر، وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم، فقال للذي في يمينه: إلى الجنّة ولا أبالي، وقال للذي في كتفه اليسرى: إلى النار ولا أبالي»(٧٣).

وبين الرسول ﷺ في حديث آخر «أنَّ الله ـ عز وجل ـ خلق خلقه في ظلمه، فألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول جفَّ القلم على علم الله».

رواه الترمذي عن عبدالله بن عمرو وقال فيه: هذا حديث حسن(٧٤).

٤ ـ كتابة الله لأهل الجنة وأهل النار:

وروى الترمذي في سننه عن عبدالله بن عمرو بن العاصي قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان. فقال: أتدرون ما هذان الكتابان؟ فقلنا: لا يا رسول الله، إلاّ أن تخبرنا.

(٧١) سورة الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٣.
(٧٢) مشكاة المصابيح: ١/٤٣.
(٧٣) مشكاة المصابيح: ١/٤٢.
(٧٤) سنن الترمذي: ٥/٢٦. ورقم الحديث: ٢٦٤٢.

فقال للذي في يده اليمنى: هـذا كتاب من رب العـالمين، فيـه أسماء أهـل الجنـة، وأسماء آبـائهم وقبائلهم، ثمَّ أُجمِـل عـلى آخـرهم، فـلا يـزاد فيهم، ولا ينقص منهم أبدا.

ثمَّ قـال للذي في شمالـه: هذا كتـاب من ربِّ العالمين، فيـه أسـماء أهـل النار، وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثمَّ أُجمِـل على آخـرهم[٧٥]، فلا يـزاد فيهم، ولا ينقص منهم أبدا.

فقال أصحابه: ففيم العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فرغ منه؟

فقال: سدِّدوا وقاربوا[٧٦]، فإن صاحب الجنّـة يختم له بعمـل أهل الجنّـة، وإن عمل أيَّ عمل. وإن صاحب النار يختم له بعمل أهـل النار وإن عمـل أي عمل.

ثم قـال رسول الله ﷺ بيـديه فنبـذهما. ثمَّ قـال: فرغ ربكم من العبـاد، فريق في الجنّة وفريق في السعير».

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح[٧٧].

٥ ـ التقدير في ليلة القدر والتقدير اليومي:

بينـا من قبل أن الله قـدَّر مقاديـر عباده قبـل أن يخلق السمـوات والأرض بخمسـين ألف سنة، ودلَّ الكتـاب والسنة عـلى أن هناك تقـديران تقـدير حـولي

---

(٧٥) أجمل على آخرهم: أي جمعوا أهل الجنة وأهـل النار عن آخـرهم، وعُقِدَتْ جملتهم، فـلا يتطرق إليها زيادة ولا نقصان.

(٧٦) السـداد: الصواب في القول والعمل. والمقاربة: القصد فيهما.

(٧٧) سنن الترمذي: ٤/٤٥٠. ورقم الحديث: ٢١٤١ وهو في صحيـح سنن الترمـذي للشيخ نـاصر: ٢/٢٢٥.

وتقدير يومي، فأما التقدير الحولي ففي ليلة القدر، ففيها يكتب من أم الكتاب ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر، وما يقوم به العباد من أعمال ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾(٧٨).

أما التقدير اليومي فهو سوق المقادير إلى المواقيت التي قدرت لها فيما سبق، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾(٧٩).

روى ابن جرير عن منيب بن عبدالله عن أبيه قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية، فقلنا: يا رسول الله، وما ذاك الشأن؟ قال: أن يغفر ذنبا، ويفرج كربا، ويرفع قوما، ويضع آخرين.

وجملة أقوال المفسرين في الآية **«أن الله من شأنه في كل يوم أن يحيي ويميت، ويخلق ويرزق، ويعز قوما ويذل قوما، ويشفي مريضا، ويفك عانيا، ويفرج مكروبا، ويجيب داعيا، ويعطي سائلا، ويغفر ذنبا، إلى مالا يحصى من أفعاله وإحداثه في خلقه»**(٨٠).

٦ ـ كتابة ما قدر للإنسان وهو جنين في رحم أمّه:

ورد في الأحاديث أن الله يرسل ملكا للجنين في رحم أمه، فيكتب رزقه وأجله وشقاءه وسعادته، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن عبدالله (هو ابن مسعود) قال: حدثنا رسول الله ـ ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق قال: «إن أحدكم

---

(٧٨) سورة الدخان: ٢.
(٧٩) سور الرحمن: ٢٩.
(٨٠) ذكره صاحب معارج القبول: ٣٤٦/١ عن البغوي المفسر.

يجمع في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكـون علقة مثـل ذلك، ثم يكـون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثمَّ يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد.

فوالذي لا إله غيره، إن أحـدكم ليعمل بعمـل أهل الجنّـة حتى ما يكـون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليـه الكتاب، فيعمـل بعمل أهـل النار، فيـدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينهـا إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنّة، فيدخلها»(٨١).

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قـال: «وكّل الله بالرحم ملكا، فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة. فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: أي رب ذكـر أم أنثى، أشقي أم سعيد؟ فـما الرزق؟ فما الأجل، فيكتب كل ذلك في بطن أمه»(٨٢).

وروى الترمذي في سننـه عن أنس قال: قـال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيرا استعمله فقيل: كيف يستعمله يا رسول الله؟

قال يوفقه لعمل صالح قبل أن يموت»

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح(٨٣).

---

(٨١) رواه البخـاري، انـظر فتـح البـاري: ٤٧٧/١١. ورواه مسـلم: ٢٠٣٦/٤. ورقم الحـديث: ٢٦٤٣. والسياق لمسلم. ورواه أبو داود والترمذي أيضا.

(٨٢) رواه البخـاري، فتح البـاري: ٤٧٧/١١. ورواه مسلم: ٢٠٣٨/٤. ورقمـه ٢٦٤٦. والسيـاق للبخاري.

(٨٣) سنن الترمذي: ٤٥٠/٤. ورقمه: ٢١٤٢.

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة، ثم يختم له عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار، ثم يختم له بعمل أهل الجنة»(٨٤).

وعن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنّة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة»(٨٥).

ومما يحسن أن يساق في هذا الباب لما فيه من العبرة، قصة الذي أخبر الرسول ﷺ أنه من أهل النار، ففي صحيح البخاري عن أبي حازم عن سهل بن سعد أن رجلا من أعظم المسلمين غناءً في غزوة غزاها مع النبي ﷺ، فنظر النبي ﷺ فقال: من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار، فلينظر إلى هذا.

فأتبعه رجل من القوم وهو على تلك الحال من أشدِّ الناس على المشركين، حتى جُرِح فاستعجل الموت، فجعل ذبابة سيفه بين ثدييه، حتى خرج من بين كتفيه.

فأقبل الرجل إلى الرسول مسرعا: فقال أشهد أنك رسول الله.

فقال: وما ذاك؟

قال: قلت لفلان من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إليه، وكان من أعظمنا غناءً عن المسلمين، فعرفت أنه لا يموت على ذلك، فلما جرح استعجل الموت فقتل نفسه.

---

(٨٤) رواه مسلم: ٢٠٤٢/٤ ورقم الحديث: ٢٦٥١.
(٨٥) رواه مسلم: ٢٠٤٢/٤.

فقال النبي ﷺ عند ذلك: «إن العبد ليعمل عمل أهل النار، وإنه من أهل الجنّة. ويعمل عمل أهل الجنّة، وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم»[٨٦].

---

(٨٦) فتح الباري: ١١/٤٩٩ ورقم الحديث: ٦٦٠٧.